

المرأة في حياة المتنبي - دراسة نفسية-

الدكتور. كبير الشيخ

كلية الآداب و العلوم الانسانية.

المركز الجامعي بعين تموشنت

أن يكون للمرأة حضور في شعر المتنبي الرجل، فذاك أمر طبيعي، وأن يأسره حب أو يستهويه غرام ، فليس في هذا عيب وليس هو أكثر من استجابة لداعي الفطرة . لكن المتنبي بما أوجده لنفسه من تميز، ومن أحدثه حوله من تناقضات، أوقع الدارسين



في حيص بيص . فطائفة منهم : انساقوا خلف مقولة "وراء كل رجل عظيم امرأة" ، وكأنهم بذلك يستجيبون لنظرية في الغرائز وجعله الغريزة الجنسية الدافع الرئيسي الوحيد لكل سلوك الإنسان وتصرفاته في هذه الحياة¹ . هؤلاء النقاد رأوا في المتنبي رجلا من الرجال ، لا يمكنه أن يخرج على القاعدة ، فحاولوا تلمس أثر المرأة في حياة المتنبي ، والتعرف على تلك المرأة ، التي خلقت من هذا الرجل هذه الشخصية الجبارة ، أو دفعته إلى مشارف المجد بطريق شعوري أو لا شعوري²

وإذا كانت خولة هي التي ملأت على المتنبي قبله في بلاط سيف الدولة كما يرى شاكر ، فإن عائشة بنت رشدين في رأي علي الجارم كانت العازف الذي داعب أوتار قلب المتنبي بمصر فغنت

بأرق الألحان . وكما كانت خولة سبب صبر المتنبي على تحمل المهانة في بلاط سيف الدولة، كانت عائشة سبب بقاء المتنبي بمصر بعد أن تقطعت الأسباب بينه وبين كافور³

ولم يعجزهم أن يجدوا في شعر الرجل أبياتا لا تسعفهم على تلمس هذا الاتجاه إلا بمزيد من التأويل والتخريج البعيد، فتعللوا بها وحملوها ما لا طاقة لها به حتى يسلم لهم رأيهم وتصدق ظنونهم . فكأن هؤلاء يريدون أن يجدوا في قلب المتنبي متنفسا طبيعيا لهذا الغزل الذي فاض به ديوانه في مطلع قصائده أو في ثناياها، فاتخذوا من قصائد الرثاء ، وفي شكواه من الزمن وهي أعراض كفيلة بإثارة اللوعة و الحسرة في النفوس ؛ اتخذوا من ذلك كله شواهد رمزية على تباريح الهوى وأسر الغرام .

ومحمود شاكر أحد هؤلاء ؛ فقد لحظ الفرق الكبير الكائن بين شعره الأول وشعره الذي قاله في حضرة سيف الدولة ؛ وحاول أن يجد تفسيراً لذلك من خلال القراءة بين سطور شعر المتنبي والاستنباط من روائع حكمه

وبلاغته . فاهتدى إلى كون خولة أخت سيف الدولة هي (السبب الأكبر في هذا التجويد الفذ الذي غلب به الرجل على شعراء العربية)⁴، و(جعلته حكيم الشعراء وشاعر الحكماء)⁵ ؛ وقد وجد ضالته في مرثيته في خولة والتي يقول فيها⁶ :

أرى العراق طويل الليل مذ نعيت فكيف ليل فتى الفتيان في حلب
يظن أن فؤادي غير ملتهب وأن دمع جفوني غير منسكب
وهل سمعت سلاما لي ألم بها فقد أطلت وما سلمت عن كتب

فمحمود شاكر يرى في شعره : (نفحة من نفحات المرأة التي تكون من وراء القلب، وتصنع للشاعر المبدع بيانه وتتخذ من فنها النسوي مادة تهيؤها لفن صاحبه وعبقريته ونبوغه) . وراح يتمثل خولة (وهي دائبة تصنع له بيانه وتهيء له فنه) ، ويستظهر (من أمر أبي الطيب أنه حين بلغه وهو بالكوفة في سنة 352 موت خولة أخت سيف الدولة تمزقت أحلامه، ولم يبق له قلب يمدّه بالقوة والتدافع والثورة، كالذي كان له من قبل واستيأس من أمره إلا قليلا)7.

غير أن الحب المكين يُفترَض فيه أن يدفع صاحبه إلى التلطف والركة والدعة في المعاملة والسلوك، وإلى شيء من التزلف والخضوع للمرأة، ولكننا افتقدنا هذه الرقة النفسية في طبع الرجل وافتقدنا أثرها في إنتاجه الشعري ، فلم نجد إلا شعرا مدبجا بحمرة الدم، ملتهبا بلظى الغضب، وإلا حكما رشيدة وأمثالا سديدة ما ينبئ عن توثب فكر لا عن تباريح قلب . لذا لا يُمكننا اعتبار الحب محركا للمتنبي ، اللهم إلا أن يكون حبا عقليا يخضع لإرادة الفكر وتحكم العقل، لا حبا

وجدانيا وميلا عاطفيا يغلب الإنسان على أمره ويتسرب برغمه في إنتاجه، ويتجلى في جميع مواقفه⁸. أو حب تعويض لفقده حنان الأم الرؤوم، فخولة هي المرأة الوحيدة في حياة المتنبي التي تطابقت مع النموذج والمثال الأنثوي الذي في نفس أبي الطيب أي جدته ؛ لأن خولة كانت أنثى تسعى لأن تكون رجلا كما كانت جدة المتنبي، فهي امرأة ورجل معا، أم وأب في نفس الوقت، وهذا ما كان يحتاجه أبو الطيب الذي فقد أبويه صغيرا، وفقد جدته التي احتلت من نفسه محلا كبيرا ، والتي لم يجد من يحل محلها سوى خولة فأرسل عواطفه نحوها⁹

أما عن الميراثية التي قالها فيها ؛ فقد تكون موجهة لأخيها سيف الدولة ، وهذا على طريقة أبي الطيب في الخروج عن المألوف ، فيكون فيها توافق فكري ووجداني بين المتنبي وسيف الدولة ، وحين متصل بين الصديقين . وقد يكون فيها رد لجميل الفقيدة وبرها وإحسانها (إليه عن بعد كما كانت تحسن إلى غيره من الشعراء وأهل الأدب ، فقد يكون هذا حقا ، وقد يكون كلام شاعر)¹⁰ ؛ ويؤيد هذا قوله¹¹

ولا ذكرت جيلا من صنائعها إلا بكيت ولا ود بلا سبب

وأما الصفاء والركة والمهارة التي نلمحها في شعر المتنبي وهو في بلاط سيف الدولة ، والتي لا عهد لنا بها من قبل؛ فليست هي أثرا لذلك الحب الموهوم، بل مردها إلى كون الشاعر في هذا البلاط قد استوفى جميع مقومات التفوق والنبوغ من صقل الطبع وشحذ القريحة واستواء النفس. ولأن الأمير وحاشيته قد أوتوا نصيبا وافرا من الذوق والأدب والعلم، ولأن الحياة من حوله تغيرت ، فاقتضت تغير شعره معها . والمتنبي نفسه يصرح أن الشعر تبع للبقاء !

وأما ما نجده في كثير من قصائد المتنبي من تشبيب بالنساء، وإبداء لواعجه وأشواقه إليهن، وإغراقه أحيانا في تصوير مشاعر الحب عنده ؛ كما في قوله 12 :

جری حبها مجرى دمي في مفاصلي فأصبح لي عن كل شغل بها شغل
سبتي بدل ذات حسن يزينها تكحل عينيها وليس لها كحل
وقوله 13 :

وعذلت أهل العشق حتى ذقته فعجبت كيف يموت من لا يعشق.

وقوله 14:

تذل لها واخضع على القلوب ولنوى فما عاشق من لا يذل ويخضع

فهذا المنحى يمكن تفسيره : بأنها لحظات معينة في حياته،
ترد إليه فيها هذه الخواطر ، أو كأنه يحس أن هذا الغرض
الشعري يقتضي منه أن يبدع فيه ، ولو تكلفا، أو كأنه يلجا إليه
جريا على عادة الشعراء القدامى الذين يجعلون النسيب غرضا
رئيسيا في القصيدة ، ومسايرة لهم في عمودهم الشعري، وترسما
لخطاهم في منهجهم الفني ؛

(لأن اقتفائه أثر أبي تمام ومقامه في البادية وتعصبه
للعرب، حبب إليه اتباع سنن الشعراء الأقدمين . ولقد كان
معظم حساده من العلماء والشعراء يودون أن يحيد المتنبي قيد
شعرة عن عمود الشعر المأثور، فيهجموا عليه بالنقد والتجريح
، ويأخذوه بالزراية والتقييح. ومن أحق من المتنبي بإحياء سنة
العرب في شعورهم وهو العربي لحما ودما، والبدوي ثقافة
ورواية، والمتنبي في ظل دولة بني حمدان العربية) . لهذا كله كان
يصطنع الغزل اتباعا لسنن المتقدمين، لا استجابة للعاطفة، ولا
تلبية لدواعي النفس)¹⁵ .

ولهيامه بعروبتة في تغزله نجد النسيب عند المتنبي يتوهج
إذا ما اتصل بفتاة من البادية ، أو أعرابية تعيش فيها¹⁶؛ فقد
كان مغرما بهذا النوع من النساء ، وكان يفضلهن على

الحضريات، وذلك لأن في النوع الأخير تكلفا وتصنعا لا يطيقه ؛ يدلنا على ذلك قوله 17 :

ما أوجه الحضرم المستحسنات به كأوجه البدويات الرعايب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب

فالمتنبى إنسان حكيم ذو فلسفة تكره التزين والتكلف
الذي يخفي ما وراءه من طبيعة قد تكون غير جميلة ، والمرأة لا
تستطيع العيش دون الرياء و الزينة ؛ إذ هي من لوازم حياتها .
يقول العقاد : (ومما يعاب على المرأة الرياء ولست أبرئها منه
ولكني أظن رياءها أنفع من صراحتها و أصدق من نظر الحياة
من صدقها ، فالمرأة مجبولة على الزينة و التمتع ، والزينة ضرب
من الرياء و لكنه منتسب إلى حب الجمال)18.

وفي كل الأحوال ؛ فالمرأة عند المتنبى هي مجموعة من
المتناقضات ، وهي عائق عن بلوغ الآمال إذا جعل المرء همه
مصاحبتهم، وأولى بالرجل ذي الهمة أن ينصرف إلى سعيه
الحثيث دون أن يعطي المرأة همه ووقته ، والأغلب الأعم أن
الحب لم يدخل قلبه . والمتنبى نفسه كان يتغنى بترفعه عن المرأة ،
ويُفصح عن أنفته من الهوى ؛ فيقول :

فلا تحسبن المجد زقا وقينة فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتضريب أعناق الملوك وأن ترى لك الهبوات السود والعسكر المجر19

ويُعرفنا على نظرتة إلى النساء والعشق ؛ فيُنشد :

وللخود مني ساعة ثم يبتنا فلاة إلى غير اللقاء تجاب
وما العشق إلا غرة وطماعة يعرض قلب نفسه فيصاب
وغير فؤادي للغواني رمية وغير بناني للزجاج ركاب
تركنا لأطراف القنا كل شهوة فليس لنا إلا بهن لعاب²⁰

ويرى عبد الرحمن شعيب أن المتنبي لم يصطنع هذا الأسلوب عامداً، ولكن تهيأت أسبابه في تاريخه ونبئت دعائمه في نفسه، فاندفع إليه دون وعي أو إدراك . في فجاء غزله حيننا (لا إلى امرأة تطارحه الهوى وتبادلته الغرام، كما قرر ذلك بعض النقاد من قبل، ولكن إلى حياة يعمرها الولاء ويغمرها السلام، ومن ثم خاطب الملوك والأمراء على أنهم أنداد له وأكفاء له . كما يتساوى أعضاء الأسرة الواحدة وتزول بينهم الفوارق وتضيق المسافات ، وغدت تلك الظاهرة إحدى خصائص المتنبي الأدبية) ، وليست هي -في نظر شعيب- (إلا رمزا عن الحياة التي كان يرومها بعد أن حُرِم منها صغيرا ويافعا وشابا وشيخا، ولئن ظهرت المرأة في بعض الأحيان محورا لهذا الحنين، فما ذلك إلا لأنها المركز الذي تلتف من حوله الحياة الأسرية الآمنة التي يرومها ويهواها)²¹ .

كما أن للنشأة التي نشأها أثرها في خلق هذه النفسية تجاه الجنس الآخر ؛ ف(كما أبعدته تلك النشأة الطامعة في الملك

بالحرب والقتال عن هو الخمر بالمعاقرة والمنادمة أبعدته كذلك
عن الهوى بالنساء، وأبعدت النساء عن أن يرين فيه خليلا يحب
أو صديقا يهوى، فتركه وتركهن، وأحس ذلك في نفسه
إحساسا عميقا، فاض على لسانه في كثير من أشعاره(22).
لذلك (لا نجد بشعر المتنبي شواهد قوية على الحب و الغرام ،
لا لأن المتنبي نفى عن نفسه ذلك في أكثر من موقف من مواقفه
الشعرية ، بل لأن منهجه في الحياة و ما عرف به من خشونة
الطبع و صعوبة اللمس و توقر النفس يجعله بمنأى عن الغرام
بعيد عن مظنة الهوى)(23) .

يذهب (علي كامل) إلى أن المتنبي لم يذكر زوجته في شعره
، كما أنه ظل يؤكد في شعره على رجولية ممدوحيه ، وهذا يعني
أن المتنبي كان يعاني من شذوذ جنسي . لكن التأمل في هاتين
العلتين ، يرى أنهما لا تنهضان حجة لو صم المتنبي بالشذوذ ،
فإغفال ذكر الزوجة يندرج ضمن نسق ثقافي كان سائدا ، هذا
النسق الذي يبرز الثقافة الذكورية ويربط الرجولة بالعلو ،
والأنوثة بالدنو ، إلى حد أن النساء أنفسهن كن مسكونات به .

والمتنبي هو الأكثر كفاءة على التعبير عن النظرة أو
الصورة التي كانت للمرأة في عين الفحل أو في عين الثقافة
الفحولية ، وإن كان عصر الشاعر يعكس وجود ازدواجية في

صورة المرأة في التراث العربي، حيث هناك فرق شاسع بين صورة المرأة الداخلة ضمن سلطة الرجل وعرضه وحرمة ، وبين المرأة التي تقع خارج هذه الدائرة ؛ فالمرأة التي هي داخل الدائرة توصف بالتعفف و التحجب والشرف، بينما توصف التي في الخارج الدائرة بالفتنة الجسدية التي تقوي الرجال .

ويشرح هذا المعنى اقتصار المتنبي في ديوانه على مراثيات خمس نساء هن : جدته، وخولة أخت سيف الدولة الصغرى ، وأم سيف الدولة ، وعممة عضد الدولة . وعند قراءتنا لهذه المراثيات يتضح جليا أن المتنبي مر مرور الكرام بعممة عضد الدولة، وأخت سيف الدولة الصغرى، وهذا تأكيدا للثقافة الذكورية التي لا تعير المرأة اهتماما ؛ ذاك أن المرأة ليس لديها من الصفات التي تستحق الوقوف عندها كالرجل. أما ارتفاع نسبة الاهتمام بجدته، وأم سيف الدولة، فذاك لأن هذه الثقافة تمنح الأم مركزا عاليا، وهو أعلى مقامات المرأة²⁴ . وأما خولة فلأنها أخت خليفه سيف الدولة والمرأة التي غمرته بإحسانها وفضلها ، فكان من مقتضى المروءة أن يُخلدها في شعره .

لقد كان المتنبي في هذه القضية كما في غيرها فريدا في أقواله وأفعاله ، كان يجري وراء أحلامه في المجد والعظمة ، وهي أحلام كانت تبعده عن الانفعال بالحياة انفعالا طبيعيا ، مما

جعله يهجر ملذاته ويكره الدنيا ويحمل تبعات سوء تكيفه .
فحب المتنبي هو حب عابر (لا يعدو الإعجاب بالحسن
والطرب إليه، والذي يمر بالإنسان مرا خفيفا ، فلا ينال منه إلا
كما ينال النسيم العليل من الأشجار الضخمة الواشجة الجذور
. يمس أعطافها فتحبيه بهزة لينة تشبه هزة الثمل النشوان. لا
نستطيع أن نبرئ ساحة المتنبي منه، بل نقسو عليه إذا حرمانه
هذا النصيب الضئيل، فليس يخلو قلب من صبوة كما يقولون.
والمتنبي وإن تغنى بالصورام والقنا وخضب يده بالدماء يحمل
بين جوانحه قلب شاعر ؛ يتفطن لمعاني الجمال ويدرك أسرارها)
لقد أمكنه تقديره خطورة الرسالة التي يقوم بها، و هي بعث
المجد العربي، فنآى بنفسه عما تهالك عليه الشعراء من هو
وعبث ومجون و فسق ، وترفع بعزة عما يحط من قدره ، أو
يخدش شرفه .

المصادر و المراجع:

- (١) انظر: المتنبي بين ناقيديه-عبد الرحمن شعيب-ص323.
- (2) انظر: الدوافع النفسية- مصطفى فهمي-ص71.
- (3) انظر: الشاعر الطموح-علي الجازم-ص55.
- (4) انظر: المقتطف-عدد خاص بالمتنبي-محمود شاعر-ص129.
- (5) انظر: المقتطف-عدد خاص بالمتنبي-محمود شاعر-ص129.
- (6) ديوان المتنبي-عبد الرحمان المصطاوي-ص331.
- (7) انظر: المقتطف-عدد خاص بالمتنبي-محمود شاعر-ص129.
- (8) انظر: المتنبي بين ناقيديه-عبد الرحمان شعيب-ص324-325.

- (9) صورة الآخر في شعر المتنبي - محمد الخباز - ص 221-222.
- (10) انظر: مع المتنبي - طه حسين - ص 212.
- (11) ديوان المتنبي - عبد الرحمن المصطاوي - ص 332.
- (12) ديوان المتنبي - عبد الرحمن المصطاوي - ص 39.
- (13) ديوان المتنبي - عبد الرحمن المصطاوي - ص 25.
- (14) ديوان المتنبي - عبد الرحمن المصطاوي - ص 27.
- (15) انظر: صحيفة دار العلوم - عدد خاص بالمتنبي ج 1 - ص 192 - مقال الأستاذ حسن علوان.
- (6) فصول في الشعر و نقده - شوقي ضيف - ص 116.
- (7) ديوان المتنبي - عبد الرحمن المصطاوي - ص 343.
- (8) مطالعات العقاد - ص 89.
- (9 4 8) ديوان المتنبي - عبد الرحمن المصطاوي - ص 154.
- (20) ديوان المتنبي - عبد الرحمن المصطاوي - ص 364-365.
- (21) انظر: المتنبي بين ناقديه - عبد الرحمن شعيب - ص 329.
- (22) انظر: صحيفة دار العلوم - عدد خاص بالمتنبي ج 2 - ص 134 - مقال الأستاذ السباعي بيومي.
- (23) المتنبي بين ناقديه - عبد الرحمن شعيب - ص 327.
- (24) عبد الله الغدامي - ثقافة الوهم - ص 59.